التَّدَيُّن

حسب الحرف، وحسب الروح

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٠٨

www.coptology.org

-١-

لماذا الصراع بين الحرف والروح؟

عندما كتب القديس بولس رسائله منذ أكثر من ١٩٠٠ سنة كانت قضية التَّدَيُّن في زمانه أكثر وضوحاً من أيامنا، ولكنها لم تكن أكثر سهولة. كانت المسيحيةُ لا زالت غضةً يافعة، وكان المسيحيون يعرفون إيمانهم جيداً، وكانوا قد اختبروه وعاشوه، وهو ما جعل تدَيُّنَهم واضحاً، بل وأكثر وضوحاً من التَّدَيُّن عندنا. ومع ذلك لم يكن هذا التَّدَيُّن سهلاً؛ لأن بعضهم ترك دينه القديم الذي نشأ عليه، وكان هذا يعني أحياناً القتل أو حكم إعدام معنوي تصدره الجماعة ضد المرتد الذي شاء أن يترك دينه القديم بحثاً عن دين جديد.

هذه هي أول ملامح الصراع بين الحرف والروح.

ومع أن الذين يتركون ديانتهم القديمة يكونون أكثر شعوراً وإحساساً وإدراكاً للموقف الجديد وللعناصر الجديدة في الدين الجديد، إلاَّ أننا يجب أن نشير هنا إلى حقيقة واضحة، وهي أن المسيحية لم تكن جديدةً تماماً. فقد خرجت المسيحية من قلب العهد القديم، وفي تفسير واضح للعهد القديم، وصورة الرسالة التي أُعلنت في شخص المسيح الذي التزم بكل ما في العهد القديم، لكي يحوِّل العهد القديم وينقله إلى المستوى الأعظم، أي المستوى الروحي الجديد.

هذا هو قلب الصراع بين الحرف والروح، بين القديم والجديد.

والقيمة الأساسية التي جاءت بها المسيحية هي أن نقرأ الأسفار المقدسة في نور الخبرة الروحية الجديدة التي أسَّسها المسيحُ بحياته، فليس النص هو كل شيء. فالنص وحده هو الحرف بكل ما فيه من قسوة ومحدودية. النصُ بدون اختبارٍ هو قديم؛ لأن حروفه لا يمكن أن تتغير، ولا يمكن أن تُلاحق الحياة في سرعتها أو في حركة تطورها الدائم. ولكن الاختبار وحده هو القادر على أن يَفهم معنى النص، ويشرحه، ويضيف إلى معانيه الكثير. الاختبارُ يبدأ من النص، ويعلو إلى آفاق أعظم من النص نفسه.

عندما تجسَّد ابن الله استطاع المسيحيون أن يفهموا العهد القديم بشكلٍ آخرٍ مختلف. فالنص ظلَّ كما هو عند اليهود، ولكنه اكتسب معنىً آخر مختلف في الكنيسة بسبب الإيمان بابن الله الذي شرح النص، ليس الحروف أو الكلمات، وإنما كَشَفَ عن أهدافه. فالتَّديُّن حسب الحرف هو الاكتفاءُ بالنص، هو الاستغناءُ عن اختبار الإيمان في يسوع المسيح، هو عودة إلى عبودية الحرف والاستغناء عن آفاق الروح. النصُ قيدٌ، والروحُ حياةٌ،

وهذه هي المواجهة التامة الدائمة بين الحرف والروح.

حسب الحرف، التاريخُ مغلقٌ لا يمكن أن يُفتَح على أي شيء جديد، ولذلك يتخطى التاريخُ الحرفَ، ويقفز فوقه تماماً، فهو متحرك والحرف ثابت ولا يمكن أن يقيِّد الواقفُ في مكانه مَنْ يسير إلى الأمام. وإذا قيَّد الحرفُ التاريخَ جرَّهُ التاريخُ خلفه وقتله؛ لأن التاريخَ بأحداثه دائمُ الاحتكاك بالحرف، يظلُّ يحتك به إلى أن يموت الحرف. قد يصاب التاريخُ لفترة بالجمود، وتضعف حركته، ويصبح في جموده مثل الحرف، ولكن الحياةَ تشبه النهر الدائم الجريان، قد يُعطِّلُها سَدٌّ ويُوقف حركتها، ولكن السدودَ تنهار أمام ضغط المياه الهادي غير الملحوظ.

التاريخ يؤكد إنَّ الحرفَ عاجزٌ، وإنَّ الدواءَ الحقيقيَ هو في الروح. والتاريخُ شهادةٌ للحرف وللروح، فالتاريخُ يؤكد وجودَ الحرف، ويكشف عن الروح.

الحرفُ ساكنٌ؛ لأنه محدود بما اخترعه الإنسانُ نفسه من حروفٍ كانت في البداية رموزاً للإدراك وعلاماتٍ للتشاور والحوار، ودلالةً تعطي للفكر فرصةَ التقدمِ، لكن الفكرَ قَلَّدَ الحرفَ وصار ساكناً مثله، وفي سكونه لا يجد أمامه سوى سكون الحرف يستعين به لكي يثبِّتَ سكونَه، ولكن سكونَ العقل مؤقتٌ، وهذه هي شهادة التاريخ .. قد نيأس من فترات سكون العقل، ولكن عندما يتحرك العقل، فإنه يجرف أمامه كل الحروف وتنهار المعاني القديمة دائماً.

ولذلك، صراعُ الحرف والروح دائمٌ، لا يمكن أن يتجاوزه الناس مهما تحصَّنوا في سكون الحروف، وفي قدرتها، فهي مثل نار القش سريعاً ما تخبو ولا تخلف وراءها سوى الهباء.

العقلُ سبق الحرفَ. هو مثل الطفل، صورةُ الوجود البِكر الذي لم يتصل بعد بما حوله، مثل الوردة التي لم تتفتح بعد، هو براءةٌ كامنة. العقلُ بلا حرفٍ يعرف ويدرك بلا لغةٍ ولا مفردات. هو الوعي الحر الذي لم يتلوث بعد .. ومتى ماتت الطفولة، ماتت معها حرية الروح وظهر الحرف، ولكن المسيحَ سبق أن بشَّرنا بالميلاد الجديد، ودعا الشيوخ مثل نيقوديموس إلى أن يولدوا من جديد ليعودوا إلى ما قبل الحرف، إلى ما قبل الشريعة، إلى آدم قبل السقوط.

لقد خلق اللهُ الإنسانَ طفلاً في إدراكه، وعلَّمه البيان، أي الإدراك. وعندما شاخ الإنسان وفَقَدَ طفولته، أمسك بالقلم لكي يسجِّل ما تعلَّمه، لا لكي يهدي السجل إلى الآخرين الآتين، بل لكي يجعل الآتين عُبَّاد حروفٍ وكلمات ... فالحرفُ زائلٌ متى عاد الإنسانُ طفلاً، متى تجاوز الشيخوخةَ وعاد إلى البراءة ... ذلك بيان الحياة لا يدوِّنه القلم مهما توافر له من قدرات، وإنما يراه الوعي ويدركه فيعود إلى الطفولة. أمَّا إذا عجز عن الرؤية، سجَنت الحروفُ كل قدرات الوعي ومهَّدت للصراع، وبشَّرت بأن القديمَ بائدٌ، وبأن الجديدَ آتٍ.

الحرفُ ضروريٌّ ليتعلم غير الراشدين. وفي مجتمع العبيد والرقيق، الكلُ غيرُ راشدٍ، وعيَهُ مسجونٌ في سجن المخاوف، يُطِلُّ على الحاضر فيراه بعيني الماضي، أمَّا المستقبل فهو كابوسٌ رهيب ... ويظلُّ الحرفُ يغذِّي في العبيد العبوديةَ، ويضيف إلى سواعدهم أغلالاً جديدةَ ... لكن القيدَ يدمي السواعد، وصرخةُ الألم لا بُدَ آتية ...

وقد يولد الناس جميعاً في مجتمع عبيد لا يعرف الحرية، ولا سمع اسمها، كما أنها قد تحذف من الكتب، وتحرم الإشارة إليها حتى يفقد الناس كل الدلائل والعلامات والرموز الدالة عليها. هنا تحفر العبوديةُ قبرها بيدها. فالعبوديةُ استرقاق، والرقيق ليس كله من عجينة واحدة تشرب من بئر المذلة ... وبين العبيد عبدٌ قانع وعبدٌ طامح .. وصراع العبيد مخاض الحرية، فتولد الحريةُ بعد يأس طويل ... حريةٌ على إحدى يديها دم القتلى، وعلى اليد الأخرى الوعد بالمستقبل.

ويمزِّق العبيدُ في صباح الحرية دساتير العبودية وشريعة الاسترقاق، عندئذٍ تصبح كلمات الرسول شعاراً تراه على الجدران: "في المسيح يسوع ليس عبد ولا حر" فالمساواة لا تقوم على الحرف، وإنما المساواة شريعة الروح التي تشرق على الحروف ... فيتطور رُشْدُ العبيد وينمو لكي يكسر طوق العبودية ويولد الأحرار.

وصراع الماضي مع الحاضر أكيد، تراه ليس في حياة الأفراد فقط، بل في حياة الشعوب .. هو المرآة التي نرى فيها صراع الحرف والروح.

-٢-

ما هو الحرف؟

الحرفُ منقوشٌ على الحجر .. البردي .. الورق. تغيَّرت أشكاله .. وتغيَّرت المادة التي سُجِّل عليها ... ولكنه ظلَّ ينمو في بطءٍ شديد .. قد يكون نمو الحروفِ هو اختراعُ كلمةٍ جديدةٍ تضاف إلى مفردات اللغة، فاللغة تنمو حتى تواكب الحياة المتغيِّرة، لكن ليس هذا هو الحرف ... وإنما الحرف هو أن يقف العقلُ عند القديم لا يتحرك عن معناه وعن غايته.

الحرفُ هو أن تفقد الكلمات علاقتها بالحاضر، فتصبح مجرد شكلٍ مرسومٍ آتٍ إلينا من عالم آخر، وكأن إنسان العصر الحجري جاء إلى مدينة لرواد الفضاء ... لا هو يفهم لماذا هم هكذا، ولا هم بدورهم يفهمون لماذا هو يرتدي تلك الملابس ... ولا لماذا يتكلم تلك اللغة الغريبة ...

هذا هو الحرف: عندما يفقد القديم علاقته بالجديد.

الحرفُ هو عجز الإنسان عن الإدراك، فيضطر إلى تكرار القديم، ويقتل كل محاولات التجديد. الحرفُ أداةُ قتلٍ وعودةٍ إلى الوراء .. الحرفُ فكرٌ يهدف إلى تعطيل نمو الإنسان. هو: لا تقتل ولا تزنِ ولا تسرق، دون أن يدين أشكال القتل الجديد ... وأنواع الزنى والسرقة التي تواكب تطور الحياة والعلاقات.

الحرفُ شريعةٌ .. والشريعةُ علاقةٌ بين اثنين أو أكثر، والعلاقات تنمو ...

والوعي يتقدم ... ولكن، أن تظل الشريعةُ بحروفها كما هي، تُعطِّل نمو العلاقات، وتقتل إدراك الأبعاد الجديدة في العلاقات بين الناس.

قد يكون الحرفُ ظاهراً ومعروفاً، تجده مكتوباً على وثائق معروفة، على أنَّ ظهوره لا يعني قوته، إنما ضعفه. الحرفُ عاجزٌ عن الوصول إلى ضمائر الناس. هو ظاهرٌ، أمَّا النيَّات فمستترة، وكيف يصل الظاهر إلى المستتر والخفي.

-٣-

الروحُ ظاهرٌ ومعروف

الروحُ منظورٌ وظاهرٌ .. هو الغايةُ وراء كل حركة، وخلف كل قول .. هو غاية كل الأشياء، ومَنْ لا يرى الغايةَ، لا يرى الروح.

الروحُ معروفٌ .. فهو إدراك .. والإدراك لا يمكن إخفاؤه .. الروح هو الايجابية في السلوك، في الفكر، في الحياة.

الروحُ رباط الماضي بالحاضر .. فيعبر كل ما هو صالح من الماضي إلى الحاضر .. لأن الغاية دائماً تظهر. الروحُ شوقٌ للمستقبل .. شوقٌ للنمو والكمال.

الجسدُ يذبل ويموت ويندثر في التراب .. لكن تظل حرية المناضلين وأشواق الناضجين وأحلام الأحرار تُوقظ في الناس رغبةَ كسر القيود .. والتطلع إلى ما هو خلف الأسوار مهما علت .. فالروح تعبر حدود الزمان.

الروحُ هو جوهر العلاقة بين اثنين، أو أكثر .. تنمو العلاقة فتنمو الغايات .. وتولد غايات أخرى من رَحِم الروح .. تولد من التقدم والنضج .. فالروح شريعة الحق، والحق يدرك في المستقبل.

مَنْ يقرأ الحرف يظلُّ ساكناً في مكانه لا يتحرك حتى يموت.

مَنْ يقرأ الروح يظل يتحرك حتى يدرك الكمال، أي الله الذي لا يموت.

– ٤ –

البداية عند بولس،
ليست الحرف، ولا حتى الروح

كثيرون تعبوا حتى يضعوا نظاماً متناسقاً يعبِّر عن الأفكار الكثيرة التي عبَّر عنها الرسول .. البعض يبدأ بالسقوط، البعض بالله، البعض اتخذ الإيمان اليهودي نفسه كبداية، ولكن ما هي بداية الإيمان اليهودي نفسه. هل هي الله، أم الإنسان أم الاثنين معاً. البعض اعتبر الخلق هو البداية، والبعض اعتبر المسيح هو كل شيء. فهو يحتل أكبر مساحة في رسائل القديس بولس. والبعض اعتبر أن القديس بولس كتب بعد يوم الخمسين، ولذلك العنصر الجوهري هو الروح القدس .. وآخرون أن البداية في التبرير بالإيمان. لكن لماذا نقطة بداية .. ولماذا نبحث عن نظام؟

إنَّ الرسول بولس يبدأ من حيث يريد .. وحسب الموضوع الذي يعالجه.

حسب الحرف، يجب أن يبدأ الرسول بشكل معين، ويجب أن يذكر موضوعات معينة في ترتيب هو أصلاً من وضع الذين يدرسون الرسول بولس .. فالرسول لم يهتم بترتيب معين. واعتبر البعض أن النظام الرائع للعقيدة المسيحية هو في رسالة رومية وأن غلاطية تكمِّل ما جاء في رومية .. لكن الرسول لم يكتب رومية كأول رسالة، كما أن ترتيب الموضوعات في رومية ليس هو نفسه في كورنثوس الأولى

والثانية.

هذه كلها دراسة حسب الحرف .. النظام الأبجدي لا غاية له، وإنما هو مجرد ترتيب بلا غاية .. فلماذا وُضعت الباء بعد الألف في الأبجدية العربية، ولماذا لا تجيء الألف في النهاية. هذه هي أسئلة اللامعقول، وإجابتها غير معقولة أيضاً. يسألها الأطفال في حيرة؛ لأن البراءة لا تعرف ترتيب الحرف ولا تفهمه. كما أن ترتيب الحروف ليس له غاية واضحة.

نظام الحروف، والأعداد، وترتيب الأيام، وتقسيم الساعات، كل هذه بدايات وضعها الإنسان لكي يغلب بها الفراغ والخواء الذي وجد الإنسان ذاته فيه منذ أن سقط.

ولا يمكن أن نتوقع كيف يبدو العالم بدون تقسيم الأيام وبدون الساعات، أو الأبجدية ... الخ. ولكن ذلك النظام الذي وضعناه .. لا يجعلنا ندرك العالم أو نفهمه.

إنه يساعدنا على أن نفهم الحياة .. وبعد ذلك علينا أن نفهم الحياة نفسها .. لكن مشكلة الإنسان تظهر في أنه توقف عند النظام، ولم يستعمل النظام كوسيلة للإدراك .. عَبَدَ الإنسانُ الحرفَ، ووجد راحة في النظام، فاكتشف الإنسان أن الذي يخرب النظام هو الإنسان نفسه .. إمَّا بالعصيان الواضح، وإمَّا بالبحث عن الثغرات .. فالنظام مثل الإنسان، ليس كاملاً.

القديس بولس يبدأ حيث يرى، والرؤيا ليست مثل النظام، إنها لا تبدأ بشيء محدد، ولكنها دائماً شاملة، وإذا بدأ الإنسان في وصف شيء فإنه سيدخل في كل تفاصيل الرؤيا.

الرؤيا أشمل من نظام متتابع، تتابُعه أعطاه القوة والوضوح والثبات .. ولكنه لا يستطيع أن يشرح .. نعم، هو يحدد أين ومتى ومَنْ .. الخ ولكنه يعجز عن أن يدخل في شرح لماذا أين؟ ومَنْ جاء وكيف ..؟

الإنجيل رؤيا، والرؤيا أشمل من النظام .. بل أن الإنجيل لا يخضع لنظام .. رؤيا .. بشارة .. خبرٌ سار جاء من حيث لا نتوقع، ومن حيث لا ندري.

المسيحُ ليس نظاماً .. إنه حياة .. وحياةٌ جاءت من السماء إلى الأرض لكي تأخذ الحياة الأرضية إلى السماء.

والحياةُ أعظم من النظام .. لا يمكن أن يصبح الطفل أعظم من أمه .. فالحياة تلد النظام ويظل النظام تابعاً للحياة .. إن ماتت الحياة، مات النظام بموتها.

وقد تبدو الحياة فعلاً غريبة بدون نظام .. ولكن كيف يبدو النظام بدون حياة .. قد نرى الحياة فوضى غير محتملة .. ولكن كيف نرى النظام وقد ماتت الحياة وتعذرت الرؤيا؟

لقد أدرك القديس بولس الحياةَ في المسيح. فلم يحاول أن يحدد بدايةً لفكرٍ لاهوتي، ولم يبحث عن نقطةٍ مركزية .. لقد وجد يسوع أو بالحري وجده يسوع، ولذلك لم يهتم كثيراً بالنظام، فحيث يسوع توجد الحياة، فلماذا يهتم بنظام آخر غير نظام الحياة "ناموس الحياة في المسيح يسوع".

-٥-

المآزق التي يقود إليها الحرف

يقول الرسول: "الحرف يقتل". وقد قَتَلَ الحرفُ اسطفانوس، والذين رجموه بالحجارة خلعوا ثيابهم وتركوها عند قدمي شاول. "تأتي ساعة يظن كل مَنْ يقتلكم أنه يقدِّم خدمة لله"، ولذلك يخلقُ الحرفُ القتلةَ، فالذين يعميهم الحرف، يظنون أن القضاء على الخصم هو نهاية الصراع.

الحرفُ لا يرى إلاَّ الموتَ نهايةً للصراع؛ لأن الحرفَ يقود إلى الحدود، والموتُ حدٌ، ولكن متى كان الموتُ حداً للحياة؟ .. لقد تعدت الحياةُ الموتَ بالقيامة.

الحرفُ نقشٌ على حجارةٍ، وقد أدَّى إلى الموت (٢ كورنثوس ٣: ٧). يعرف الحرفُ العقوبةَ، ومَن يتعدى الشريعةَ يموت .. وبعد أن يموت المتعدِّي، لا يمكن رده مرةً ثانيةً إلى الحياة. لا يملك الحرفُ أن يهب الحياةَ، بل يملك أن يقتُل ويعاقِب.

الحرفُ ينبوعُ التعصب؛ لأنه محدود، ويجعل مَن يستعمله عاجزاً عن الرؤيا.

عاجزاً عن رؤية الله.

عاجزاً عن تقبل نعمة الله.

عاجزاً عن محبة أخيه.

عاجزاً عن المغفرة.

والحرف لا يملك أن يدخل إلى قلب الإنسان، وكما يظل ضمير الإنسان بعيداً عن الحرف، هكذا يظل الحرف غير قادر على أن يحكم على ضمير الإنسان.

التديُّن حسب الحرف يعلِّم النفاق، فالفريسي يطهِّر الطبق الذي يأكل فيه، ولا يتورع عن القتل لأجل مصلحةٍ ما.

لقد اعترض الحرف على أن يشفي المسيحُ امرأةً مريضةً في يومٍ مقدسٍ لله وهو يوم السبت، في الوقت الذي لا يعترضون على أن يذهب أحدهم لكي ينقذ حماره الذي وقع في الحفرة .. ليس هذا نفاقٌ فقط، بل قسوةٌ لا حد لها. فالذي يفضِّل الحمار – الذي خُلِقَ لخدمة الإنسان – على الإنسان، ويستريح ضميره على هذا التفضيل، ليس قريباً بالمرة من الله.

التديُّن حسب الحرف هو الذي جعل السبت أعظم من الإنسان. النظام يستقر ولو بقتل الناس، ولو بتفضيل النظام على الإنسان "إن الإنسان لم يخلق لأجل السبت بل السبت جعل لأجل الإنسان".

وعبادة الله حسب الحرف تهتم بالفرائض. فكل من ينفِّذ الفرائض هو مقرَّبٌ عند الله. لكن الحرف لا يذكر كيف ينفذ الإنسان الفرائض، ولا ما هو نوع الطاعة، هل هي طاعة الخوف، أم طاعة البحث عن الثواب، أم الطاعة التي تنشئ حياةً إنسانيةً سليمةً؟ .. الحرف لا يمكنه أن يفضِّل، ولا يقدِّم تفضيلاً لسلوك على سلوك؛ لأنه يقتصر على أفعل ولا تفعل.

الحرفُ ضيِّقٌ وقصير. الحرفُ يعطي للمنظور قيمة، الطهارة بالماء. إن كان حسناً أن يغتسل الجسد للنظافة، فمن يغسل ضمير الإنسان وقلبه من الداخل.

كيف ينفذ الحرف إلى القلب النجس لكي يطهِّره. الحرفُ عاجزٌ؛ لأن الحرف لا يملك قدرةً على التطهير، إنه قادرٌ على أن يحكم فقط.

لا توجد شريعة قادرة على أن تطهِّر الإنسان من الداخل. كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تقول له أنت نجس، أو أنت طاهر. وبينما تصف الشريعة كيف يتطهر (أي يغتسل) الجسد، تظل حياة الإنسان الداخلية – عقله وخياله — تقبع في نجاسة الفكر، غير قادرة على التطهر الحقيقي.

قصورُ الحرف ظاهرٌ .. ولذلك الحرف ينتمي إلى الجسد، إلى تلك الرغبة فيما هو منظور مثل الختان "ختان اللحم"، أمَّا "طهارة أو ختان القلب" فهذا فوق قدرة الحرف.

في هذا الإطار يجب أن نفهم لماذا يصف القديس بولس الناموس بالعجز وبعدم القدرة، ولماذا تفوقت النعمة على الناموس. إن ما فشلت فيه الشريعة ليس فقط رد الإنسان إلى الحياة، بل حتى تطهيره الداخلي. والحرف لا يستطيع أن يقدم إلاَّ قواعد للعلاقات، وهي قواعد تحريم ومنع وترخيص أو سماح، وأمَّا التحريم والمنع فلا يمكن اكتشاف غاية من ورائه سوى صورة مبهمة عن أضرار تحل بالفرد أو الجماعة.